وادي الظلال

الجزء الثاني

الفصل السادس

شفيت يولا وغادرت المصح وتبعتها زينب.. وكان من الممكن أن يترك ذهاب الأخيرة فراغا كبيرا في نفس إقدام لولا أن الصداقة كانت قد توطّدت بينها وبين سلمى..

كانتا ذات يوم تسيران على الطريق خارج البوابة فالتقتا بأحمد ساعي البريد.. سألهما عن صحتهما، ثم استدرج إلى القول بأنه شفي وسيغادر المصح عن قريب.. كان يبدو في وجه إقدام انفعال غريب ولهفة، وفجأة امتلأت عيناها بالدموع.. وأشاح أحمد بوجهه يخفي دمعة فلم تشكّ سلمى أن ما بينهما ليس عاطفة عابرة..

لم يكن من أحد على الطريق، فلقد ذهب الجميع لمشاهدة فيلم تعرضه سينما المصح..

وقال أحمد:

- لا بأس أن نخبر سلمى بأن إقدام ستكون زوجتي حين يتم شفاؤها..

وتضرّج وجه إقدام وهي تبتسم فهنأتها سلمى بحماس وتمنّت لها الشفاء العاجل..

والتفتت إقدام إلى أحمد وهمست:

- إلى أين قررت الذهاب يا أحمد؟..
- إلى العراق..
- إلى العراق! كيف يا أحمد وأنت محروم الجنسية العراقية؟. إنهم يسجنونك.. يعذبونك أو يعدمونك.. ماذا تنتظر من أوغاد عملاء وسفكة دماء؟..
- وربّت أحمد على كتفها قائلا:
- لا تخافي يا إقدام.. الرجال خلقوا للنضال..

وسالت دموع إقدام على وجنتيها بصمت، فضمّ أحمد رأسها وكفكف عبراتها بأنامله المرتجفة.. ثم التفت إلى سلمى قائلا:

- إن إقدام تريدني أن أجد عملا في لبنان وأستقرّ.. تريدني أن أصـمت قلمـي وأترك العراق الحبيب للمجرمين المخربين.. هل هذا ممكن يا سلمى؟..أيستطيع أن يفعل ذلك أي إنسان وطني؟..

- لا تحرجني يا أحمد.. إنني أقدّر شعور إقدام وأقـدّر شـعورك.. ظروفكمـا صعبة.. أنت على حق وهي على حق.. إن ذهابك إلى العراق مغـامرة خطـرة، وسيسيء إلى صحة إقدام لأنها ستكون دائما نهبا للقلق..

وكفّت إقدام فجأة عن البكاء وقالت وكأنها ذكرت شيئا:

- سيحضر والدي في الغد.. ألن؟..

وتنهّد أحمد:

- لا أستطيع يا إقدام.. أخشى أن يرفضني.. بأية مؤهّلات أتقدم إليه؟.. إنتظـري قليلا حتى ينجلي مستقبلي الغامض..

- ولكن إقدام كانت مصرّة على أن يخبر أحمد والدها مهما كانت النتائج فـأذعن أحمد، ثم افترق عن الفتاتين حين بدأت طلائع المرضى الخارجين مـن الـسينما تتقاطر من البوّابة..

جاء والد إقدام لزيارتها وكان رجلا مهيبا كبير القلب رقيق العاطفة.. لقد بـدا على وجهه تمزّق داخلي وهو ينظر إلى إقدام وقد أصابتها نوبـة سـعال عنيفـة لانفعالها برؤية والدها..

كان المذياع يردد أنباء انتهاء الحرب وانهيار ألمانيا فقالت الآنسة هيفا بلهجـة التشفّي:

- عكف "هتلر" الصليب وعكفه الله..

ولم ترتح سلمى لقولها.. إنها حقا لا تفهم شيئا في السياسة ولا تبـالي كثيـرا بانتصار أي من الفريقين.. ولكنها تحمل في نفسها لهتلر شيئا من الحب، لا لشيء إلا لأن أحمد يحبه ويعتبره بطلا قوميا، ولأن هتلر يكره اليهود ولا يمكّن لهم فـي وطنها فلسطين كما يفعل الإنكليز..

أما والد إقدام فلقد تنهّد تنهّدة حرّى وقال بهدوء:

- لم تزعجن أنفسكنّ بسماع الأخبار؟.. إسمعن الأغاني والموسيقى والأحاديـث الحلوة والفكاهات.. لعن الله السياسة ما أكثر بلاءها وخصوصا حين تنقلب القـيم ويصبح العملاء حكاما!..

لقد تحدّث بعد ذلك وفي عينيه يأس وفي لهجته مرارة من عملاء الإستعمار الذين يستعمر الأجنبي البلاد عن طريقهم.. يسندهم ويجعلهـم حكامـا ويـضرب بأيديهم الأحرار المخلصين من أبناء الـشعب ليخلـو لـه الجـو وينفّـذ مآربـه الإستعمارية..

وعلمت سلمى أنّه يعني بذلك حكام العراق.. وأردف :

- إن هؤلاء العملاء أخطر على الشعب من المستعمر نفسه.. لأنهم وهم من أبناء البلاد أجرأ على وطنهم، وأوقح في تنفيذ مآرب سادتهم المستعمرين.

ثم التفت مخاطبا ابنته:

- هلمّي ارتدي شيئا فوق ثيابك وهيّا نتمشّى قليلا..

كان الوقت ضحى، وخرجت إقدام مشرقة الوجه تتـأبط ذراع والـدها بحـبّ وإجلال.. وبقيت سلمى تراقبهما يبدوان حينا ثم يغيبان بين الشجر على الطريـق الصاعدة إلى البوابة، وهي تجترّ الحديث بتروّ وإمعان..

وحين عادت إقدام عند الأصيل كان يبدو عليها أنها أمـضت نهـارا حـافلا بالرغم مما اعتراها من إعياء، وهتفت حين رأت سلمى بمفردها في الغرفة:

- إنهما معا.. تركتهما يتحادثان في شؤون العراق.. لقد أعجب والـدي بأحمـد كثيرا.. بجرأته وأدبه ودعاه لتناول الغداء معنا في "بكفّيا"..

وابتسمت سلمى لفرح صديقتها:

- لقد سررت إذن؟.. ألم تحدّثا والدك بشيء؟..

- كلا!.. لم نجرؤ.. بل لم نجد الفرصة المناسبة.. إنني أحيانا أرى أن أحمد على حق..

وغاضت الإبتسامة من وجهها وأردفت:

- لقد شجّع والدي أحمد للذهاب إلى العراق!..

وتهدّج صوتها وهي تردف:

- إن قلبي يحدّثني أنّه إذا ذهب إلى العراق فلن أراه بعد اليوم..

وانتابها السعال فاحمرّت عيناها وسالت دموعها، وقالت لها سلمى معزّية:

- سلميه لله.. ماذا بوسعك أن تفعلي؟..

- لقد فشلت كل محاولاتي لإبقائه في لبنان.. منذ شهرين وأنا أقنعه فلا يقتنـع.. يقرأ رسائل أصدقائه فيغلي كالبركان.. يريد أن يلبس إكليل الشوك وحـده.. هـل يحتمل العذاب لو عذبوه؟..

وأجهشت بالبكاء.. فأخذت سلمى بمواساتها:

- لماذا تفترضين السوء يا إقدام؟.. أليس أحمد على حـق، فلمـاذا لا ينتـصر الحق؟..

وأجابت إقدام في نوبة بكائها:

- إنّه مريض.. مريض.. ضربوه من قبل فنزف فلو فعلوا الآن فسيموت..

وسمع صوت رجل في الباب يسأل بلهفة:

- ما بال إقدام تبكي؟.. ماذا حدث لها؟..

والتفتت الفتاتان لتريا والد إقدام.. وقالت سلمى تبرر بكاء صديقتها:

- بكت فراقكم.. إنه شعور قاس أن يمنعنا المرض من أن ننعم بالحياة في ظـل أهلنا أليس كذلك؟..

وضمّ الوالد إقدام إلى صدره، وأخذت هي تشدّ على عنقه الوثاق، وقد تحرّرت انفعالات صدرها، فهي تبكي تارة وطورا تبتسم وأخرى تقبله.. ولم يستطع الوالد الكهل المعذّب إلاّ أن تنحدر دمعة على خده، راح يمسحها بكفه، وهو يعد إقدام بأنه سيزورها دوما حتى تشفى وتضمها العائلة مرة أخرى..

* * *